

العربية قبل سيبويه وبعده

للاستاذ ابراهيم العريضي

ما وقع معه أصحاب المدارس النحوية في تناقض مع أنفسهم ، ومع مع القول :

تندر بهؤلاء . اضعف من حجة نحوي !

ان غرضي من طرح الموضوع على هذا الشكل هو ان الفت نظركم الى ضرورة اعادة النظر من جديد في هيكل وبناء هذه اللغة الكريمة شكلا وموضوعا ، على غرار ماتم عند سوانامن تقص في مثل هذه الدراسات حول لغاتهم منذ استهل هذا القرن ، وهاتد أشرف الان على نهايته - لان نظل نجتز كالبيفاء ماتاله القائلون مناقبل منات السنين دون وضعه على المحك . فاللغة عند العلماء المعاصرين هؤلاء ، بخلاف ما يريده لها نحائنا التدماء ، دائبة في التطور غير جامدة ، وما ذلك الا لان الممول في هذه الدراسات اللغوية الحديثة التي يتبنونها هو على اللغة الحية التي يتحاور بها الناس تلقائيا في شتى امورهم ، لا تلك التي تستبطنها الكتب محنطة كالمومياء . فما يستخلص للغة من قواعد لايجوز بحال ان تكون كبولا بينعها التنفيس والحياة ، كما ظل الحال عندنا الى امس القريب ، بالنسبة الى الفصحى ، ولا ان تكون تاصرة عن احوالها الدارجة .

والآن فلنبتسط في الموضوع

اذا عدنا بالذاكرة الى الوراء ابان الفتوحات الاسلامية الاولى الفينا كثيرا من الشعوب والامم تفضوى تحت لواء الاسلام وتسمى جاهدة لتعلم احكام هذا الدين الجديد وتلاوة آيات محكم كتابه العزيز وهو القرآن الكريم ، لذا كان لابد لهم من تعلم اللغة العربية .

اسمحوا لي ان اترد - في مستهل كلمتي هذه - بكل تواضع ، بما هو مندى لي حكم البداة بالنسبة الى اللغة العربية ، قبل ان أتبسط في الموضوع شرحا وتعليقا :

اولا - ان اللغة العربية التي ظلت تتدارسها الشعوب الاسلامية - قراءة وكتابة - تفتها في الدين وتكها في الادب ، منذ القرن الثاني للهجرة ، انها هي لغة حضارية مشنبة مهذبة أخذت بها هذه الشعوب الداخلة في الاسلام «من غير العرب طبعا» من طريق الكتابة والدرس ، وهي تختلف في معلماتها النفسية وملابساتها الاجتماعية ودلالاتها القوية عن لغة البادية التي كان العرب في اوطانهم - باختلاف لهجاتهم - يتحاورون بها على سليقتهم ، ولا زالوا يفعلون ذلك تلقائيا الى اليوم في اتحاء عالنا العربي . وهي التي حاول النحاة - من غير طائل - تلمس شواهدا في الشعر الجاهلي ، واختلفوا في امرها في شعر الفرزدق في صدر الاسلام ، ثم تنكروا لها كليا فيما رآوا من آثارها في شعر المتنبي في القرن الرابع الهجري . فاساؤوا بذلك - الى اللغة والتي أنفسهم - لولا العلامة ابن جنس الذي تدارك الموضوع ، وكان « عالما » بمعنى الكلمة فوضع لهم حدا .

ثانيا - ان قواعد هذه اللغة التي يتدارسها الطلاب في مدارسهم كما وضعها - ولا أقول استنبطها - النحاة ، لتيسير درس اللغة حسب منطق أرسطو ، هي أبعد ما تكون عن الاحاطة بالشواهد الشعرية والآيات القرآنية التي نتحو نحوا يختلف منها في كثير من الاحيان

* من الكلمات التي القيت في مهرجان سيبويه بشيراز 1974 .

وهذا سبب ليسنى . . يضاف اليه سبب الاجتماعى يتجلى فى الرغبة السامرة لدى تلك الشعوب والامم فى السعى نحو التناهم فى شؤون حياتها اليويوية مع السادة الجدد .

ومن الطبيعى ان كل متعلم للغة لابد وان يخطئ فى ادائها . . وهذا ما يسمى « بالحن »

واللحن انواع : لحن صوتى فى طريقة نطق الحروف والكلمات ، ولحن اسلوبى فى طريقة نظام الجملة وحركات اواخر الكلمات فيها .

وهناك لحن آخر نشأ على يد الذين قرأوا القرآن ولم يكن فى اول امره منقطا ولا مشكلا . . ولهذا وقع الهمز فى اخطاء فاحشة فقد قرئت الآية « ان الله برىء من المشركين ورسوله » بكسر اللام فى رسوله . . وهذا خطأ شنيع . . وكان الصواب ان تفتح اللام على العطف او ترفع على الابتداء . . فقام ابو الاسود الدؤلى بهمة التنقيط والتشكيل ، وكان التشكيل عبارة عن نقطة بين يدي الحرف او فوق الحرف او تحته بلون مغاير لقون الحروف المكتوبة وما استحدث لها من نقاط تمييزا لبعضها عن بعض .

ثم جاء الخليل بن احمد وقام بهمة التشكيل بالطريقة المألوفة حاليا .

وهكذا قضى على نوع من انواع اللحن . . وبعيت الاخطاء الصوتية واللغوية والاسلوبية . ومن الملاحظ ان هذه الاخطاء كانت معظمها من الشعوب والامم غير العربية ، لان العرب كانوا ينطقون لغتهم بالسليقة ، كمهارة من المهارات اليشوية . . ينشأ عليها ناشئ الفتيان منهم ، كما هو الحال عند سائر الشعوب فى تواجدها الى اليوم .

وليس معنى هذا ان العرب كتدوا لا يخطئون — على مستوى الافراد — احيانا ، لقد كانوا مثل غيرهم يخطئون . . الا انها اخطاء قليلة لا تقضى من شأن تأملها ، هذا اذا اخطا فى لغة قبيلته . . لكن لغة قبيلته لا تعد خاطئة اذا قيست اى لغة القبائل الاخرى . . فهذه ليست اخطاء ، انما هى لغة العرب ، تنوعت فى صور ادائها ونحو اسلوبها .

وهذا يختلف اختلافا كبيرا عن تلك الاخطاء التى وقعت فيها تلك الامم والشعوب غير العربية .

ان الفرق بين ما يسنيه النحاة فى كتبهما (كما ينكرونه فى منطوق العرب) « اخطاء » وبين تلك التى تجرى على لسان غير العربى هو ان الاولى يمكن تاويلها من خلال ادراكنا لاسرار اللفظة العربية وتنوع لهجاتها ومسور ادائها ومناحى اسلوبها ، كما سوف امرض عليكم من شواهدا بعد ، اما الثانية فلا تبرير لها من خلال واقننا اللغوى الذى هو الاساس والفيصل فى المقارنة والحكم .

وكان لابد من جمع شواهد اللفظة العربية نوضح القواعد الضابطة لها . . فقام الرواة واللغويون بعملية الجمع ، تارة على اساس الواضع اللغوى كما نجد فى كثير من مسائل التصريف ، وطورا على اساس احتمالاته كما نجد فى الافتراضات النحوية التى لا اساس لها من الواضع ، وشواهد كل ذلك موجودة فى كتاب سيويوه ، ونادرا على اساس الاستيعاب كما فعل الخليل فى كتاب « العين » ، حيث استخراج الكلمات كلها من اصلها الثلاثى ثم استقط المجل منها .

واحسن العلماء بالفرق بين بعض اساليب اللفظة المنطوقة وبين قولها مكتوبة ، فبعض الرموز اللغوية قاصرة عن مستوى الاداء الصوتى ، ولان الكتابة العربية فى احسن احوالها ليست الا اختراعية ولا يمكن ان تعطى صورة معبرة عن منطوق الناس ، كما نجد بدقة اكثر عند سوانا . ففى اللفظة السنسكريتية مثلا لنطق الالف بكل امالاتا اكثر من ثمانية اشكال معبرة ، بينما لا يتعدى الالف عندنا شكله الواحد رغم كثرة الامالات ، كما هو واضح فى بعض القراءات القرآنية او لهجات القبائل . وهذا ادى بدوره الى نشأة كثير من الباحث الصوتية ، نجد بعضها واردا فى كتاب سيويوه ، مما ادى عند بعضهم الى اشكالات كثيرة .

وكان لابد من تفسير اللفظة للاعاجم رغم كل هذه الاشكالات . فتمعد سيويوه الى استنباط قواعد نحوه وصرفه على اساس الاغلبية دون ان يحددها (وقد ائكرت عليه ذلك مدرسة الكوفة) ، وطالب بالقياس عليها ، واعتبر كل اسلوب عربى خارج عليها شاذا او لغوية يجب اسقاطها من اللفظة العربية كتابا وحديثا . وكانتما كان يريد ان يضع قواعد

منها ، وقال بعدم القياس عليها لانها تخالف القاعدة المطردة . ولو كان القول شاذا فربما لانقرض منذ زمن طويل ، مع ان من الملاحظ انه مستعمل الى حد كبير في كل مكان من الوطن العربي . وهذا يعني ببساطة انه أسلوب عربي خالص فيه سر لم يهتد اليه النحاة الاولون .

فنى قولنا « اكلتى البراغيث » — كما ارى — ينصب الاهتمام على البراغيث الفاعلة ، ويكون تمام القول « فاتص عليها ترحنى » . اما في قولنا « اكلونى البراغيث » فاما ينصب الاهتمام على حدث الاكل ذاته دون البراغيث ، ويكون تمام القول هنا « فانتقذنى منها » . فهذا الاسلوب الثانى اشبه ما يكون بالبناء للمجهول على غرار قولهم في الانكليزية :

I have been Pestered by mosquittoes

وله شواهد من القرآن قوله تعالى : فأسروا النجوى الذين ظلموا .

ومن الحديث قول النبى صلى الله عليه وسلم : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .

ومن الشعر قول ليلى العنينة (زوجة البراق):

فللبنى ، تيدونى ، ضربوا

لمس العفة منى بالعصا

ولم يسء ، الى لغة الضاد شيء مثل « نظرية العايل » ، التى جاء بها نحائنا لتعليل الامور . وكان باب النزاع وباب الاختصاص وباب الاشتغال مهزلة المهازل لدى تطبيقها على لسنة الناس . ووصل الحال ببعضهم الى تلمس الاخطاء — بمقتضاها — حتى فى شعر المتنبى ، وذلك بعد قرنين من وضع قواعدهم ، فى مثل قوله :

انا الذى نظر الاعمى الى ابنى

واسمعت كلمتى من به صمم

وقوله :

وانى لمن قوم . . . كان نفوسنا

بها انف أن تسكن اللحم والعظما

وقوله :

لولا مفارقة الاحباب مسا وجدت

لها المفاسد الى ارواحنا مسبلا

تعليمية ميسرة تد تصلح لغير العرب ، كما نعمل نحن حين ندرس قواعد لغة اجنبية فلا ننتهج منها غالبا — بادية ذى بدء — الا كل ما هو خاضع للقياس ، او هكذا تتعلم الابهات مع اطفالهن الصغار . ولكن هذا ليس بوارد عند ما يشب الطفل عن الطوق ، ليبلغ فى لغته مثل نوبه ويحسنها احسانهم فيسا يتقلب فيه من ظروف حياته الخاصة . وهنا يكمن فى نظر الكوفيين خطأ سيويوه حين اراد ان يخضع لغة العرب المنطوقة ويلوى عنقها وفق قواعد ذات الهدف التعليمى .

فالكسائى احد المتخرجين من مدرسة الذليل — مثل سيويوه — واحد القراء السبعة المشهورين لم يجبه هذا التجنى على اللغة . فقد نظر فوجد بعض الايات القرآنية لا تخضع لاتبية النحاة ومنطقتهم المتشدد ، وكان يتسلح بوازع دينى منين ابى عليه ان يعتبر تلك الاساليب شاذة ولا يجوز القياس عليها ، بل اعتبرها صحيحة كصحة الاساليب القياسية التى ارتضاها النحاة .

وقد مضى على نهجه الكوفيون من بعده حرصا على سلامة اللغة .

وتحضرنى هنا المسألة الزنبورية التى اختلف عليها العالمان ، فى قولهم : كنت اظن الزنبور أشد لسمة من النحلة فاذا هو هو او فاذا هو اياها . فقد قال سيويوه بالقول الاول ، واجاز الكسائى القول الثانى ، ومضى على خلافها النحاة الى اليوم . وهذه العبارة لا تقوم لذاتها فانها هى عينة لامثالها ، وما اجاز الوجهين — كما امتد — الكسائى الا لان العرب تتول بها معا . . . والى اليوم . . . ولكن فى ظرفين مختلفين . وبيان ذلك عندئذ أنك اذا كنت تنقل هذه التجربة نقلًا فيبيبا من سواك فما لك معدى عن القول « فاذا هو هو » ، اما اذا كنت تتحدث عن التجربة وقد عاينتها بنفسك فعندها لا يصح الا ان تقول « فاذا هو اياها » دلالة على معاناتك الحاضرة لها .

ان ما اعتبره سيويوه ومن اتبعه من مدرسة البصرة امثلة شاذة او لغات او لغيات لا يقاس عايبا يمكننا ان نستشف منها ابعادا معنوية وذوقية خفيت على الاعاجم ومن استعجم من العرب . وما اكثر هذه الشواهد الشاذة عندهم .

فقد عد سيويوه لغة « اكلونى البراغيث »

أن تكون غاية في حد ذاتها ، ولو أنصف النحاة
لاعتبروها وسيلة لفهم أسرار اللغة ، حتى في كل ما
جاء على وجهين من باب الجواز ، كما في قول أم
عقيل وهي ترتص طفلها :

انت تكون ماجد نبيل إذا تهب شمال بليس
لا مجرد الاكتفاء بالقول « ان تكون) هنا زائدة »
فهي قد خصته بالصفتين في حاضره وفي مستقبله
خلفا لابيه .

وان اللغة المنطوية تلقائيا هي الاصل في
تنهم اللغة واستنباط قواعدها ، لانها تظل حية
ابدا ، كما توصل الى تقريره العلماء المحدثون في
دراساتهم اللغوية .

واخيرا انا اؤمن باختلاف اللغات عند العرب ،
واعتبرها كلها حجة ، كما ارى ان ما جرى على
نسق كلام العرب فهو من كلام العرب . . تياسا او
شذوذا . . ولا يجوز أن يتحكم المنطق الذي مجاله
الفلسفة في اللغة التي ميدانها الحياة .

والسلام عليكم

البحرين ، 1974/7/24 .

ابراهيم الصريف

ولماتهم أن يدركوا أنه كان في الاول يجيب على
السؤال « من أنت ؟ » . . لا على السؤال « من
الذي نظز الامسى الى اديه ؟ » ، وفي الثاني كان
يمتسر الحكم ساريا عليه كسريته على تومه ،
لا ساريا عليهم وحدهم دونه ، وفي الثالث لم يكن
تخطئتهم له الا لجرد تطبيق ما وضعوا من نظرية
في الضمير المائد الذي لا يتقدم على اسمه ،
وان خالفهم الواقع لا في لغة العرب وحدهم بل
في جميع لغات الناس .

وخلصة القول ان بين اللغات الاتسانية
نوعا من وشائج القرى وصلات النسب ، وعلى
المهتم بلغة الضاد أن يسلح نفسه بثقافة أجنبية
مستفيدة حتى في نظراته الى لغته القومية وتلهم
أسرارها .

وان هذه القواعد التي وضمها سيويه لم
يقصد بها أن يجنب الأعراب الخطأ في لغتهم وانما
كان الغرض منها أن يجنب الأماجم اللحن ، وفي
سبيل تيسرها وقع في تناقض كثير ، لانه اراد أن
يقومها بالنطق .

وان قواعد اللغة — عند وضعها — لا يمكن